



لا أعرف ماذا أصايني اليوم...؟ عشت لأروي لكم طفولتي بمجزرة حماة 1982 م.

هناك في الموضوع تبادل الجميع همساً الأخبار، ويا لها من أخبار... كانت مليئة بالقهر والسلح والقتل والرصاص والدمار والاغتصاب والاعتقال وأغرب ما فيها حليب الأطفال.

روت إحداهن عن أم حسين التي نصب حليبها ولم تعد قادرة على الإرضاع وطفلها الذي لا ذنب له إلا أنه ولد في تلك المدينة في ذلك الزمان، بعد نضوب حليبها لجأت أم حسين إلى الماء والسكر لإرضاع طفلها الجائع الباكى ليل نهار، حاولت ذلك لعدة أيام حتى بدأ التعب والنحل على الطفل الباكى، وبكاؤه لا يتوقف أبداً، لم يتوقف عن نداءاته لأمه من أجل ذلك ولا أدرى كيف كانت تقاوم آلامها وخوفها من القصف والرصاص، يبدو أنها خاضت معركة بين نفسها وبين حليب حسين أو أنها كانت تعتقد باقتراب نهاية المجزرة، حتى تطعم ابنها المسكين وربما اعتقدت أنها ما زالت تسيطر على سلامته وأخيراً انتصرت أمومتها على كل شيء في لحظة يقين تام، وغادرت البيت مسرعة والرصاص والقصف يتتصاعد ويهبط وهذا ما كان دائماً طيلة المجزرة التاريخية.

إن الأم لم تعد تسمع إلا صوت طفلها الباكى والذي كان ممزوجاً بأصوات المكان ولكن جميع الأصوات لم تصل إلى قلبها سوى صوته المستغاث، لم أسمع ذلك الصوت بذاته ولكن سمعت موسيقاه كثيراً هناك.....

خرجت من منزلها وهي تصرخ وتندادي أهل الحي أو على الأقل من بقي منهم حياً... وهناك تحت هذا الدمار جف حليب الأطفال في الصدور، ولم تجد لحسين إلا دموعها وعلمت ذلك بعد استجابة البعض الحي هناك، ومنهم من روى... تنقلت الأم بين البيوت المهدمة ومنها إلى الأحياء المجاورة وقصدت أقرب صيدلية.. وتخيلوا مشاعرنا خلال طريقنا إلى أي صيدلية، وروحنا كبشر وبشكل دائم تسبقنا إلى هناك، وعقلنا يختار ما نريد قبل وصولنا، وغالباً ما نفترض مسبقاً أننا حصلنا على ما نريد من الصيدلية، ربما مرة على الأقل... وصلنا إلى الصيدلية ولم نجد ما نطلبها ويا له من إحباط... ووصلت أم حسين إلى المكان ولكنها لم تجد الصيدلية وبالنتيجة لم تجد حليب حسين، هذا إحباط بائس بل كان موتاً مريضاً. وتابعت البحث عن صيدلية أخرى وأخرى، تابعت الصراخ ولا من مجيب... حليب الأطفال والدواء... ركبت سيارات

الجيش ولا ندري أين جهة الرحيل.

لم تستمع الأم إلى إعلان حميده عندما أخبرنا أن التتر لا يتربدون بفعل شيء ويسرقون حتى رائحة الأجساد الحية وينشرون رائحتهم الكريهة في كل مكان.

ناضلت الأم وأسرفت بالنضال وربما وعدت طفلها أنها ستأتيه بما يريد، هي التي وعدت الله أن تفعل ذلك عبر حياتها وقبل أن يولد حسين... وهذا حال جميع الأمهات، لكن قلبها أعادها إليه مسرعة وباكية ومحبطة منكسرة خائفة.

وأكثر من كل ذلك أنها مشتاقة لحسين الباكى، في رحلة الذهاب والعودة تضاعف ألماها برأية الأجساد مرمية وممزقة مجردة مقطعة... عادت بشوقها الكبير، لم يخطر ببال الأم الهروب خارج دائرة القتل، وهي التي اقتربت من أطراف المدينة! يا له من جنون... في لحظة دخولها إلى منزلها النصف مهدم تزايده انتصار الرصاص على صوت طفلها وباقترابها أكثر من حجرته كان انتصار الرصاص كبير، إلى أن أدركت صمته العنيف، أمام تزايده الرصاص لا أدرى إن كان صمته يشبه صمت حميده أيضاً... لقد أرادوها حرباً ضد الأطفال... ابتسم الطفل الباكى وترك المدينة المستباحة لنا.

قرأت الفاتحة على روحه الطاهرة ولم تتوقف الأرواح على دخول تلك القراءة، فقد كانت تزايده في كل لحظة وأخرى، لا أستطيع أن أحصر على من قرأت هناك..

لم يتركوا شيئاً من عبئهم الإنساني، فقد أسكتوا ذلك الطفل حينها إلى النهاية، وهذا ما يعتقدونه دائماً، والله إنهم يخافون من حسين أكثر مما يخافهم..

وكنوع من الصدى اليوم وفي بداية ثورتنا المنتصرة تعلالت أصوات أطفالنا في درعا، كان بيان الحليب لأطفال درعا عندها حاصلرتني هذه الذاكرة المؤلمة، وبقيت لأيام أتوه وأنجو قليلاً من هذا العذاب، ولكنني أعرف هؤلاء القتلة معرفة اليقين. أخذت هذه الذاكرة تطرق على جدران رأسي وبيان الحليب يخنقني لأوقع عليه، ودام هذا الصراع والألم ومعرفتي المسبقة بهؤلاء القتلة وهم لا يستحقون الرجاء.

واكتشفت عندها بصياغة البيان اعترافاً بهم كبشر، وأنا لم ولن أعترف بهم يوماً، ترددت وبكيت وكيف بي أوقع على بيان يخاطبهم نظام، وأنا لا أعترف بهم أبداً وأريد إسقاطهم منذ ذلك التاريخ... موت حماة وأبي وحميدو وحسين..

كانت ذكرى حسين في حماة تخنقني من جهة، وكان يقيني ومعرفتي بالتمر يضاعف اختناقني، وانتصرت التجربة في رأسي ولم أوقع ولم أستنهض إنسانية هؤلاء القتلة الغير إنسانيين، وكيف بي أن أوقع بعد توقيعي على رحيلهم قبل ذلك، وربما وقعت وأنا لا أدرى، كانت معرفتي بهؤلاء المجرمين في مكانها، ولم يستجيبوا لأي نداءات، وأقسم أن هذا النظام -بالمعنى فقط- لا يستحق المخاطبة أو إلباسه ثوب الإنسانية، ولقد أثبتت ذلك بالثمانينيات وبإصراره الأكيد -وربما قبل ذلك- بأن الإنسانية لم تمسهم يوماً وثوبيها أكبر من حجمهم الجرثومي... اذرونني واصفحوا عنني يا أطفال درعا.

قاطعت إحدى النساء كل هذا بكائها المتعالي، حيث كانت تسكن منطقة وسط مدينة حماة، وهناك عمارات وليس بيوت عربية، دخل الجنود باقتحامهم العنيف لجميع الشقق ودخلوا شقتها وفتشوا وكسروا ودمروا يبحثون كما يزعمون عن السلاح، لم يجدوا سلاحاً... ووقتها لن يجدوا ذلك، لأننا نعلم بعدم وجوده، لقد بثوا كذبهم وعمموه وبعدها صدقوه، وأثناء تفتيشهم لبيتها وقبل هروبها إلى شمال المدينة لتنقى في الموضى، سمع الجنود صرخ طفل صغير في الشقة المجاورة ركض الجنود الباسلين إليه مباشرة، وهنا اعتقدت كما يعتقد جميع البشر، أنهم استجابوا لصرارخه كنوع من الإنسانية التي لم تصبهم يوماً، كسر الجنود الباب وبدؤوا يكسرن كل ما في الشقة، ولم يتوقف صرخ الطفل عن البكاء، يرتفع صوت الأم وهي تترجى وهي تصرخ وتعالى صوتها وصوتهم... بعدها سكت الجميع وبقي صوت الأم تصرخ وتصرخ، هجمت الأم عليهم... هرب الجنود منها وكسرت بطشهم و摩جة من الصرخ والبكاء والألم تركض إلى أسفل المبنى، لم يفهم الجيران ماذما يحصل!!!! وبعد نصف ساعة من السكون المخيف عادت الأم وهي تحمل ما تبقى من طفلها وعلمت الراوية أن الجنود

كانوا يطلبون من الأم إسكات الطفل وحاولت ذلك لم يستجيب الطفل الباكى لتهئة أمه، ربما علم بوجودهم المقيت، كان يصرخ في وجههم ويتحدى إجرامهم ببراءته وظهوره أو قاومهم على طريقته.. ولكن الجنود الأوغاد لا يفهمون لغة الأطفال أبداً... قام أحد الجنود بانتزاع الطفل من أمه ورماه بكل إصرار من النافذة، طار الطفل وبعدها سكت، لا أدرى كيف تعاملت الأم مع هذا المنطق الإجرامي الغير متوقع، ولم يخطر في بال أي شخص في عالمنا، أن يتصرف بهذه الطريقة، حاولت الرواية مساعدة الأم المفجوعة ولكن دون جدوى... لا تريد مغادرة المكان وعلمنا بعد المجزرة أنها بقيت هناك لتلحق طفلها إلى السماء، كيف استطاع ذلك المجرم أن يرمي طفل بهذه الطريقة...؟ كيف..؟ لأن ترمي وردة من النافذة أو ترمي عصفوراً وأنت تعلم أنه لن يطير... لم يكن ذلك الجندي غبياً بل كان مجرماً بامتياز، يقتدي بقادته المجرمين.

وأقسم أن هذا غيض من فيض حصل في حماة 1982 م.

المصادر: